قصيدة شوقي

في مدح الملك فيصل

بقلم الاستاذ حسين الظريفي

لما اعتزم مغنى مصر الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب السفر الى العراق عام ١٩٣٢ ، رأى المغفور له شاعر الضاد وأمير الشعراء أحمد شوقي بك ، ألا يدع الفرصة تفوت دون أن يملأها بما يريد ، فألف قصيدته الخالدة التي أثنى فيها الثناء الجم على أمة العراق وملكه ساكن الجنان فيصل الأول

وقد أنشد الأستاذ القصيدة على مسرح المعرض الذي أقيم في بغداد في السنة المذكورة ، وأنشدها أمام الملك في قصره في حضور رجال الدولة وكبار الساسة وأعيان البلد وجمهور المستمعين من شتى الطبقات . ثم رأينا مكروفون الذياع وأبواق الحاكي تعيد لنا ما أبدع به محمد عبد الوهاب على مسرح المعرض حتى شاعت القصيدة وذاعت على الأفواه . والذي نريد إثباته في هذه الفرصة هو أن مطلع القصيدة وبيتاً آخر قد كثر حولهما كلام الناس في بغداد . وانتقدهما غير واحد من الشعراء ، وكان أكثر هؤلاء المنتقدين — على ما أعتقد — يجهلون معنى البيت جهلاً تاماً ، وبهذا الجهل انحدروا الى النهجم على شاعرية شوقي ، وهو الشاعر الفرد الذي أضاف الى لغة الضاد مادة جديدة من معانيه المبتكرة . وانتقل بالشعر في بعض مواقفه من عالم الطبيعة إلى ما وراءها ، حيث تجتمع الفلسفة والشعر الرفيع في نقطة واحدة

ولذلك أحببت أن أعرض رأيي الخاص فيما يجب أن يحمل عليه البيتان . وأولهما وهو مطلع القصيدة :

يا شراعاً وراء دجلة يجرى ... في دموعي ، تجنبتك الموادي

وقد رأى كثير من الشعراء والأدباء ، أن المخاطب بهذا البيت هو جلالة الملك فيصل ، والحقيقة أن الخطاب الى الأستاذ محمد عبد الوهاب ، لعدم إمكان حمله على غيره ، ولدلالة الأبيات التي تلي هذا البيت ، وهي :

سر على الماء كالمسيح رويداً ... واجر في اليم كالشعاع الهادي
وائت قاعاً كرفرف الخلد طيبا ... أو كفردوسه بشاشة وادي

وقد شبه الشاعر — محمداً — بالشراع لما شاع وذاع من أمر غنائه في البلاد ، وهو تشبيه يمت بصلة قوية الى التشبيه بالعلم بمعنى الجبل كقول الخنساء في أخيها صخر — كأنه علم في رأسه نار — وأراد بقوله وراء دجلة — يقصد دجلة . وذلك عند اعتزام المغني السفر إلى العراق

ولما كان محمد عبد الوهاب دائم التغريد بما يؤلف له شوقي بك من قطع الشعر والقصائد ، وكانت أكثرية هذه القصائد تموج بلواعج الهوى بحيث تحمل دموع الشاعر الغزيرة من أثر الحب فيه ، جعل الشراع جارياً في هذه الدموع ، بأنشاد المغني قصائد الشاعر . فكأن شوقي يقول : يا من اعتزم السفر الى العراق وهو كأنه الشراع في الشهرة ، مرتلاً قصائدي التي هي كالدموع في الهوى ، وهو يجري فيها كالشراع — تجنبتك العوادي — وحفظك الله من كل مكروه

وهذا البيت ولا ريب من أنبغ الشعر ، وهو ابن العبقرية التي أصبح فيها لشوقي الخلود ، وللغة الضاد التيه والفخر

وأما البيت الثاني فقوله :

قف تمهل ، وخذ أماناً لقلبي ... من عيون ألمها وراء السواد

والمخاطب فيه محمد عبد الوهاب أيضاً ، والسواد هو العراق من قولهم — أرض السواد — ولا يمكن أن يحمل المعنى على أن الظباء كائنة وراء العراق ، إذ لا يمكن أن يكون هذا قصد الشاعر ، وإلا فسد عليه المعنى ، ولأن سائر أبيات القصيدة إنما تبحث عن العراق وملكه وساكنيه ، وقد ذهب إلى هذا التفسير الباطل كثير من الشعراء والأدباء ، اغتراراً بظاهر اللفظ مع أن الواقع خلاف ما يدعون . وزعم قوم أن المراد بالسواد هنا — سواد العيون — وبهذا التفسير يختل معنى البيت ويبقى مهملاً لا يشير إلى شيء

وادعى آخرون أن معنى البيت فاسد من أصله ، وقالوا في تعليل الفساد إن لفظ البيت يؤدي إلى وصف الظباء خارج العراق ، وذكر ذلك لا مكان له في القصيدة ، مع أن هذا غير مقصود من الشاعر كما سبق ذكره ، وبالنظر لروحية القصيدة ولظروف وضعها ولخواطرها المتسلسلة

وذهب غيرهم إلى حمل البيت على إرادة الحجاب بالسواد ، كأن أعين الحساد تستطيع التأثير على قلوب الناس ، وهي متحجبات من وراء نقاب . وهذه مبالغة لم نر لها مثيلاً في شعر شوقي ، وقد يتجاوز هذا المفهوم حدود المبالغة الى تكذيب الواقع له

والذى أراه فى هذا البيت ، هو أن القادم الى العراق إنما يرى منه السواد قبل كل شئ فيه ، بالنظر لكثرة ما فيه من خمائل ومزارع ونخيل حتى عرف فى التاريخ بهذا الاسم ، وبذلك تكون الظباء وراء السواد بالنظر إلى القادم اليه ، وهى فى أثنائه فى حقيقة الأمر الواقع . وهذا البيت ولا شك من وحى العبقرية أيضاً ، وفيه أبلغ ما تصل اليه رقة الشاعر فى شعره

وإننا نجد البرز فى الشعر قد يرتفع فى كل قصيدة من قصائده بالبيت أو البيتين أو الثلاثة أو بضعة أبيات . ولكنه مع ارتفاعه هذا لا يغيب بشعره عن أعين القراء . غير أن شوقى قد شب فى الشعر عن الطوق ، وبذ زملائه الشعراء فى كل بيت يرتفع فيه عن مستوى الشعر حتى يتوارى فيه عن الأبصار . فلا تكاد تقع عليه إلا بعد الجهد الجهيد ، ولا تنظر اليه إلا من بعيد كما ظهر لقراء الضاد فى هذين البيتين ، ونحن لا نشك فى أن فهمهما يحتاج الى مجهود عقلى كبير ، وتلك ميزة النابغ من الشعر ، تفرد بها شوقى عن شعراء جيله ، وبها فضل الجميع

وهنا أود أن أذكر ملاحظة العالم النفسى الدكتور ناجى بك الأصيل حول شاعرية أحمد شوقى بك ، قال الدكتور : على الجيل الحاضر أن يحدد شاعرية شوقى بك فى المدى الذى بلغت اليه ، وإلا فان الأجيال القادمة سوف تخطئ فى تقديره . وعلل هذه الفكرة بأن هناك من الشعر لشوقى ما قاله وهو فيا وراء الشعور ، ومع ما فى هذه الفكرة من العلو والنضوج فانها لا تأتلف والحقيقة . لأن مثل هذه الأبيات التى يشير اليها الدكتور هى من وحى الالهام ، وقد قالها شوقى وهو فى غيبوبة العبقرية وبها استحق كل هذا التقدير من أبناء الضاد وأصبح له فيها الخلود ، ولا يمكن أن تحمل على أن شوقى قال ما لم يدر ، أو أن شاعريته أقل من شعره ، لأن فى ذلك التخلق المغلوط . ولعل الدكتور ينحرف فى فكرته قليلاً إلى القول بوجوب تحليل أبيات شوقى التى قالها فى غيبوبة العبقرية ، لئلا تفوت الأجيال القادمة بعض الدقائق النفسية التى يعرفها الجيل

هذا ما عنّ لى ذكره فى هذين البيتين اللذين كثر حولهما القيل والقال ومن كان له فيهما شيء يقال فليأت بما عنده ، إذ الحقيقة بنت البحث

بغداد

مصيون الظريفى
المحامى

بين الرعاية والجبر

القديس «تبريها» !!

قد يبدو غريباً أن تترجم لشخص لما يمض شهران على مولده ، وإنه لغريب حقاً ، ولكن الذى دعانا الى أن نكتب عنه وأن نترجم له ، هو أنه ولد ولم يلبث أن شب واكتهل وحصل على درجة القديسين ، وغشى دور كثير من العظماء والأدباء والعلماء ، وإن لم يعرفه بعض أولئك الذين دخل عليهم دورهم

ولد القديس تبريها فى شهر مارس سنة ١٩٣٥ م . وولد فى مصر وفى بيئة عظيمة جداً إلى أقصى حدود العظمة . وهنا نستمهل القارئ برهة وجيزة نخرج فيها الى موضوع آخر عرض لنا . ثم نعود الى قديسنا العظيم

قرأت كتاب الدكتور هيكل « حياة محمد » من عنوانه الى إمضاء الدكتور فى آخر صفحة منه ، وكنت أجد من السرور لقراءته ما ينسينى نفسى وما يتعلق بها من شئون الحياة

وكانت تأخذنى فى كثير من مواقفه تلك الروعة العظيمة التى صورها المؤلف عند وفاة الرسول إذ يقول : « استعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب ، فأرانى شاخصاً له مأخوذاً به ممتلئ القلب من جلال هيبته أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً »

فرغت من قراءة الكتاب وفى نفسى من الآثار لكثير من حوادثه ما فى نفس الدكتور هيكل لوفاة الرسول

طفقت أقلب الصفحات الأخيرة من الكتاب عن غير قصد حتى وصلت من فهرس الأعلام الى حرف التاء فى صفحة ٥١٢ فوقف نظرى عند اسم القديس (تبريها) فجعلت أستعيد فى ذاكرتى ما قرأت فوجدتنى لا أذكر هذا الاسم ، ولا لأى شيء ورد ذكره ، فأسفت على أن لم أع مما قرأت شيئاً

ثم رأيت أمام اسم القديس فى الفهرس أن اسمه ورد فى صفحة ٤٣ من الكتاب ، فرجعت اليها لأعرف ذلك الذى شرد عن ذهنى ، فاذا بى أجد فى تلك الصفحة هذه العبارة :

«وإن الذين زاروا كنيسة القديس بطرس فى رومية ورأوا